

رواية ربيع حار

القـــــــــــــــــدس : ٣-٣-٢٠٠٥

ناقشت الندوة رواية "ربيع حار" للروائية الفلسطينية المعروفة سحر خليفة، تقع الرواية الصادرة في العام ٢٠٠٤ عن مركز أوغاريت الثقافي في رام الله في ٢٢٠ صفحة من الحجم المتوسط.

وقد بدأ النقاش جميل السلحوت فقال:—

سحر خليفة أدبية متميزة عرفناها من خلال أعمالها السابقة وهي:— لم نعد جوراي لكم، الصبار، عباد الشمس، مذكرات امرأة غير واقعية، باب الساحة والميراث.

وسحر خليفة في أعمالها تعيش هموم شعبها، تتفاعل معها، تشخصها، تنتقدها، وتسعى إلى التغيير، ومن هنا فإن روايتها تحمل الطابع المحلي، تتمركز في غالبيتها في نابلس مسقط رأس الكاتبة، وتمتد إلى بعض المناطق الأخرى في الضفة الغربية المحتلة كلما دعت الحاجة أبطالها إلى ذلك.

ورواية "ربيع حار" التي نحن بصددھا مكان أحداثھا هو نابلس وبعض القرى المحيطة بها بشكل رئيسي، ورام الله بشكل أقل، ولا غرو في ذلك، فنابلس هي العاصمة الاقتصادية للأراضي الفلسطينية المحتلة ورام الله، هي مقر السلطة الوطنية الفلسطينية منذ نشوئھا في العام ١٩٩٤ ولا تزال.

الاحتلال هو السبب:—

تحمل رواية سحر خليفة رسالة حب، رسالة سلام للفلسطينيين والاسرائيليين معا، مع أن الرواية مليئة بأحداث العنف التي يمارسها الاحتلال، ويفرضها على الشعب الفلسطيني، هذا العنف الذي تمثل في الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وبناء مستوطنات يهودية عليها، كما تمثل أيضا في عمليات اقتحام المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية، وقتل البشر، وتدمير البيوت والمزارع والمرافق الاقتصادية والبنى التحتية، هذا الاحتلال البغيض يحمل مسؤولية كل ما يجري في الأرض الفلسطينية من اعمال عنف يمارسها، والتي خلقت بدورها أعمال عنف مضاد، والمؤلفة لا تقول ذلك مباشرة، لكن طريقة سردها لعملها الروائي بفتية عالية توصل القارئ إلى هذه النتيجة.

فمارسات الاحتلال الاجرامية، دمرت النفوس وشوهتها، وعبأتها بالأحقاد، وأعمتها عن إنسانيتها، بل هي المسؤول الأول والأخير عن أعمال العنف المضاد. فمجيد ذلك الطالب الجامعي الذي يهوى الموسيقى والغناء، تحول إلى مطارذ مطلوب للاحتلال بتهمة جريمة لم يرتكبها، وأجبر على المشاركة في

النضال ضد المحتل رغم أنه، فترك جامعته وحلمه في الحصول على منحة جامعية في إيطاليا، وأصيب وتعرض لارتجاج في الدماغ، مما أجبر جدته لأمه وزميلتين له على أدخاله في مكتب الرئيس في المقاطعة في رام الله حماية له عند اقتحام الجيش المحتل لمدينة رام الله، وعاش الحصار هناك، ومارس اللعبة السياسية، وأصبح نجما تلفزيونيا من كثرة اللقاءات التلفزيونية التي أجريت معه، وبات يطمع في منصب عال كأن يكون وزيرا أول وكيل وزارة.

أما أخوه غير الشقيق أحمد، ذلك الطفل الذي كان يتأذى في بداية حياته، فقد تعرض للسجن والتعذيب لأنه بحث في المستوطنة المجاورة عن قطته "عنبر" التي أحبها وتعلق بها، وخرج من السجن وقد تخلص من التأتأة، وهنا اشارة إلى ان السجن مدرسة، وخرج أيضا يحقد على اليهود مع أنه كان يستلطف احدى الطفلات المستوطنات "ميرا" ذات الشعر الاشقر، والوجه المنمش، وكان يحبها، ومع أنه كان يهوى التصوير والرسم ويريد أن يتعلمها في الجامعة، وكان يساعد والده المراسل الصحفي في أعماله، إلا انه ترك الدراسة والتحق متطوعا مع الهلال الاحمر، يسعف الجرحى والمصابين وينقلهم إلى المستشفى، وليموت هو نفسه شهيدا تحت جرافة اسرائيلية كانت تجرف منزلهم في قرية "عين المرجان" قرب نابلس تمهيدا لبناء جدار الفصل العنصري، مات في مظاهرة شاركت فيها تلك الطفلة اليهودية "ميرا" التي أصبحت شابة.

وكذلك أيضا ذلك الشاب الغزاوي وحيد أمه من الذكور وسط سبعة بنات هو ضحية للاحتلال، فمع أنه عريس لم يمكث مع عروسه ابنة السبعة عشر عاما إلا ثلاثة أيام، غاب عنها وعن أمه ثلاث سنين في نابلس لم يستطع العودة ليموت بقديفة صاروخية من طائرة أباتشي، وغيرهم كثير.

الصراع البشري والعداء النفسي:

لاحظنا في الرواية كيف أن الطفل الفلسطيني أحمد كان يقتني قطعة "عنبر" أحبها وألفها وألفته، وكان يصطحبها معه في نزهاته وجولاته، وكيف أن الطفلة اليهودية ميرا كانت تقتني هي الأخرى كلبا تحبه وتألفه ويألفها، وكيف أن الطفلين استأنسا ببعضهما البعض لدرجة الحب، لكن بعد أن سجن أحمد وهو يبحث عن قطته السجينة في المستوطنة وما تعرض له من تعذيب واتهامه بالارهاب والتخريب، دفع به إلى الموقف المضاد، فلم يعد يحب ميرا، وهي لم تعد تحبه، أي أن هؤلاء الطفلين أحب كل منهما الآخر ببراءة الأطفال، وصادقا الحيوانات، لكنهما عندما كبرا وشبا وقعا تحت تأثير الأحداث وكلمات الحقد ولم يستطيعا التواصل في علاقتهما، فهل الانسان أكثر وحشية من الحيوانات؟! تقول سعاد "الحيوان يقتل ليأكل ويعيش، والانسان يقتل ليسود، فالانسان يموت ليعيش، ويقتل ليعيش أي أن الحياة والموت لا ينفصلان حين نفكر بالحرية"؟؟ ربما هو ما جاء على لسان خوري اللاتين لأحمد "بدعوات السلام، بالحب ممكن نخرج من هذا العنف، لكن بالقتل بالعمليات مش ممكن نخلص."

البطولة النسوية:-

يلاحظ من كتابات سحر خليفة أنها امرأة تحترم أنوثتها، فتكتب عن عذابات المرأة وأحلام المرأة من منظار نسوي، وهي بالتالي تدافع عن بنات جنسها من خلال روايتها، أنها تفصح الظلم الواقع عليهن، تعري نظرة المجتمع الذكوري للمرأة، وتنفّر من بعض العادات والتقاليد التي تسلب المرأة إنسانيتها وحقوقها، وهي تعطي المرأة دوراً في الحياة يتميز على دور الرجل بل يتفوق عليه.

فوالدة سعاد مثلاً: زوجها سجين، أمضى سنوات طويلة في السجن، وتركها في ريعان الصبا مع عدد من الأطفال عملت وكدت وكافحت، اشترت ماكينة خياطة، وما لبثت أن تحولت إلى مشغل خياطة، أنفقت على أبنائها ورعتهم وربتهم وعلمتهم، أخرجهم سعاد طالبة جامعية، وحتى سعيد الذي درس الحقوق وهاجر إلى عمان، كان محامياً فاشلاً، لم يستطع الانفاق على نفسه وأسرته، ولم يستطع سداد ديونه إلا مما كانت ترسله له والدته، بقيت مكافحة طيلة حياتها، حتى أنها أصبحت ملجأً للمقاومين في نابلس تعد لهم الطعام وترعاهم، فهي الأم الرؤوم للجميع، وعندما أفرج عن زوجها لم يكن له أي دور، لقد تحرر من السجن مريضاً وأصبح عالة عليها.

وجدة مجيد لأمه كانت ترقص وتغني في المناسبات، ساهمت في نقل مجيد عنماً أصيب إلى المستشفى وتعرضت للمشاق، ولما لم تفلح في إيصاله إلى المستشفى نقلته إلى رام الله في سيارة لورا بدر الوشمي الصحفية، ومكث في قصر الوشمي

الذي اتهم مجيد بقتله، ثم نقلته إلى مكتب الرئيس ليلة الاجتياح لحمايته هناك، وكانت تفاخر بمغامراتها مع الرجال دون أن ينتقدها أحد سوى زوجة الوشمي، ولتموت بعدها بهدوء، دون أن يحضرها حفيدها الذي ضحت الكثير من أجله.

وسعاد تلك الطالبة الجامعية، ابنة السجين شاركت في نضالات الجامعة، وكانت متفوقة، أحبت زميلها مجيد، وآوته في بيتها، وشاركت في نقله إلى المستشفى عندما أصيب، ولم تفجح، ساعدت في نقله إلى رام الله، ومن هناك إلى المقاطعة، وشاركت في اسعاف الجرحى واعداد الطعام لهم عند اجتياح نابلس، وبقيت تتردد على مجيد في المقاطعة حتى تركها وخطب غيرها عندما ارتفع شأنه.

ولورا ابنة الوشمي المتهمه بالعمالة، والذي قتل جراء ذلك، عملت في الصحافة المتفجرة، وساهمت في جعل مجيد شخصية سياسية بارزة، وربطتها مع مجيد علاقة حب قديمة لم تنتها عنها تهمة بقتل والدها.

والمرأة في الرواية تعاني أكثر من الرجل، بل وتضحى اكثر منه، فقد لاحظنا دور والدة سعاد مع زوجها السجين وابنها المحامي الفاشل في عمان، ودور العروس الغزاوية التي لم تعش مع عريسها الا ثلاثة أيام، وليعود اليها شهيدا بعد ثلاث سنوات، وكذلك حسرة ولوعة والدة ذلك الشهيد.

وبعده تحدثت **حذام العربي** فقالت:—

لم أقرأ من انتاج الروائية سحر خليفة بناتا.

لكنني قرأت هذه الرواية على مراحل، بدأت في القراءة ثم تركتها، ثم تناولتها مرة أخرى. تكررت المحاولة ثلاث مرات.

والحقيقة، ان الالتزام فقط دفعني إلى إتمام قراءتها، هذا على الرغم من ان الاهداء يطل علينا داعيا محفزا ومتحفزا، (إلى نساء حوش العطوط في نابلس القديمة: لنحفر التجربة في الذاكرة ووعي الاجيال)، وهل يستطيع القارئ، أي قارئ ان يترك نساء حوش العطوط في نابلس، دون النظر إلى تجربتهن؟ او ان يترك التجربة تتساب بين خبايا الظل ودروب الضياع لتهاجر من ذاكرته؟

أكثر من الاهداء، إستقرني التذييل للكتاب في الصفحة الاخيرة، اذ فهمت انني بصدد "النقاط الجو وتصور المأساة"، على الرغم من انها رواية، قلت في نفسي، على ما يبدو، فهذه كذلك وثيقة، او قل انها صورة لحياة الناس في ذلك الربيع الحار، واي قارئ يملك تجاهل هذه الصور، او يملك ان يميل بوجهه عنها؟ وكم بالحرى اذا كان فلسطينيا؟

على اية حال، جلست بعد إتمام قراءة الرواية بفترة وجيزة لأخط بعض ما جال في ذهني اثناء النظر في هذه الصور من تلك المرحلة، فترة الربيع الحار.

اخترت التوقف عند النساء اللواتي ظهرن في الصورة، أو قل العنصر النسائي في الرواية، ولم يكن ذلك الأمر من السهولة بمكان إذ أن النساء في الربيع الحار عملن الكثير وشكلن عصب المحرك ولكنهن اعتصمن بالصمت.

فهذا، فضل القسام:—

... "صاحب مكتبة الجليل بدأ حياته بعد النكبة... كموزع جرائد على بسكليت... وبعد النكسة... تطور جدا لأن بلدة عين المرجان كبرت فجأة بسبب الهجرة... بنت الأوقاف صف دكاكين اختار أصغرها وأقربها تحت الدرج بسعر زهيد... وهكذا صار معروفا في البلدة بأنه فهيم ومتقف، لأنه يبيع المطبوعات، ولأن اسمه ينزل في جريدة القدس كمراسل... ص ٨. فضل القسام هذا يستتكر موقف أبيه الذي مانع من زواجه بدعوى... أن (الفتاة) التي ترفع صوتها بالغناء في بيوت الناس هي جنكية قليلة أصل ولا تستحق اسم العيلة... (أي عيلة؟!) قال لأبيه، (ياا احنا هون في المخيم!) لكن أباه ابن حيفا ووادي النسناس كان ما زال يحتفظ بمفتاح الدار وصورة معرض سجاد حيفا، اعلی.... وأحلى سجاد من ايران"...

أمّ احمد:— على لسان زوجها (فضل القسام)

وهذه أمّ احمد... "إمرأة بيضاء سمينة تحب الأكل وتحب ابنها حب العبادة..." ص ١١. وكذلك... "نظر اليها تشغل الصوف فرأى طارات من شحم ولحم ولغاليغ... ابن هذه... (احمد) ثقيل كأمه، ثقيل الظل ثقيل اللسان ثقيل الخطو والحركة..." ص ١٢. كما ان ابنها (احمد) ... "ابن الزبدة... فلينعم بعضلات اللبن واكواب الحليب..." ص ١٥ ... (احمد) هذا من غير عضل ودب سمين مثل

أمه... ص ١٤. وام احمد له وهي تمشطه... "يا قصب يا نصب، يا شعر الحريز، يا شعرات احمد حلوين كثير كثير..." ص ٢٠.

أم مجيد:- على لسان زوجها (فضل القسام - أبو مجيد):-

..."وتحسر وترحم على أم مجيد (شهيرة) وايام زمان، كانت بلون الخبز وعيناها صغيرتان... لكنها حين تضحك وتبرز اسنانا كالؤلؤ، تصبح عيناها كالألماس، لها ضحكة كالحشاشين... تخرج من قعر معدتها وتسحب نفسا وتضرب بكفها على فخذه فيحس النار تلتفح بدنه، وتغني له بصوت آسر (ايمتى الزمان يسمح يا جميل)... فرش معها اول بسطة، وانجب معها اول ابن له، وذاق معها مرارة العيش في المخيم... لكنه رغم القلة كان سعيدا... لان شهيرة وام شهيرة كانتا تغنيان في الافراح والليالي الملاح وتتقران على الدف والطبلة كالجنكيات (؟) ... تطور الحال وصارت شهيرة تغني على العود... فتذكر وهي ترقص،... تغني... تقهقه وتشرق بالضحك فتلمع عيناها كالألماس... مجيد اخذ عنها خفة دمها وحلاوة الصوت والحركة..." ص ١٢، ثم "... هذا ما كان عليه ابن شهيرة، طفل يتيم يشعر منكوش وأظافر طويلة كدجاجة، ويلعب في الحارة مع الاولاد ويتظاهر... اولا يتظاهر، يلعب في الحارة... (عرب يهود)..." ص ١٥.

فضل القسام: كذلك يخاطب ابنه البكر مجيد (ابن شهيرة) بشأن ابنه الأصغر احمد: "... هذا الولد مطلوب منك.... خذه للنادي... خذه للقهوة.... خذه

لجهنم.... المهم ما يظل قاعد بطال في خلقتنا زي البنات.... فهمت الكلام!؟..."

ص ١٦.

ويخاطب نفسه "... هذا هو الفرق بين طفولته وطفولة اخيه... وجدته وجدة اخيه التي تركت لابنتها دارا وزيتونا وقطعة ارض..." ص ١٥.

الجدّة:— على لسان فضل القسم:—

هذه الجدّة "... أحيانا تحن عليه تأخذه (حفيدها مجيد) بضعة أيام ثمّ تعيده وهي تتفخ... وتقول لأبيّه كما الشامتة... (الحمد لله على الكبر وقلة الحبل).... وهذا يعني أنّها ما عادت تطيق الاولاد.... وهي قد صارت (عجوزا) كما كانت تقول.... بالكاد تقوم بحالها من غير عكاكيز... لكن بالنسبة للأفراح وأعراس الناس... سبحان الله... تجد القوة تذهب هناك وهي تركض مثل العنزة وتأخذ معها شابة صغيرة تلبس دشداشة لامعة وصاجات الرقص... وفي آخر الليل تعود إلى المخيم وفي جعبتها حلوان العرس وأجر الزفة وأكل كثير وكنافة.... وكم أخذته إلى تلك الأفراح... وتقرص خده (شايف الكهارب يا مج مج)... أوعى الطلبة... "ص ١٤ - ١٥.

لورا:— على لسان مجيد واحمد:—

..."بنت الجيران، أصحاب الدار، تلبس الجينز وقميصا قطنيا لاصقا وبلا اكمام، كانت حلوة وشابة وبيضاء بشعر اسود قصير ملفوف في حلقات ورقبتها طويلة

كالنرجس... بنت الجبران مع كلبها في جنيّة الدار تقطف الكرز والفراولة...
كان أبوها من قبيلة نور... ومع الأيام صاروا حمولة ثم عشيرة ثم كنية ذات
صيت خطير بين أهل البلد... (الوشاشمة) هم قوم غلاظ بلا أخلاق يعملون في
السّر ثم العلن، ما يخاف الناس من ذكره. فهم يحصلون على تراخيص للشاحنات
و...و... والهويات من اليهود مقابل سهرات وصدقات وعمولات... "ص ٤١
... الوشمي الكبير جد الفتاة وأبو أبوها قتل برصاصة عذر كما أعلن ورصاص
الثورة كما أبطن..." ص ٣٨.

... "على اثر ذلك هربت أرملته الصغيرة ذات الجمال والأصل الغريب إلى كندا
وعاشت هناك مع الابناء حتى اوسلو وانتقال الثورة إلى السلطة وتأميم الرخص
والهويات... فعادت الارملة مع اولادها وبانت تقيم سهرات الأنس... بدأت
طبخات ذات روائح... العفو عن الماضي شمل الحاضر بل زاد... وبات ابنها
مستشار حكومة... ومشروع وزير... "ص ٣٩.

وعن لورا أيضا "... لم تصبر حتى ينصرف المدعون... استرقن الخطو إلى
الغرفة... ونادته بصوت متلصص... ودخلت بسرعة... هبطت على السرير
ومدت يدها إلى علبة سجائر... ووضعت سيجارة في فمها... فأشعلت السيجارة
وهي تنفخ وتدور بعينيها في الغرفة... كانت قدمها الصغيرة في صندل يكشف
اصابعها المطلية بالأبيض وساقها المشدودة بالبنتلون رقيقة ومسحوبة بانسياب
يحاكي بقية أجزائها ذات التعاريج والانحناءات والاستدارات، بدت مستديرة في

كل شيء، وجهها،... شعرها، فمها، عيناها، نهذاها وحتى حوضها وهي تجلس... والاعرب من ذلك كله أنف مشقول كالأجانب... ابتسمت له وقالت بمودة أمومية وكأنها تحكي مع طفل... "ص ٤٢.

ميرا ثم راشيل:— على لسان احمد

"...هي مستوطنة يهودية وابوها مستوطن يهودي وهذه شجرة... وهذه مرجوحة وهذه بنت... بنت شقراء بذيل فرس مثل اللعبة، حلوة وجميلة كما الصورة... لكن عقله كان في المرجوحة والمشمشتين البيضاوين وذيل الفرس..." ص ١٨.

ثم "... هز رأسه وابتسم وهو يشير إلى صدره (أنا احمد أنت ميرا)... وهكذا صارا صديقين، أو ربما مشروع صداقة، سرّ صداقة... ابنة مستوطن بطاقيّة ورشاش ضخمة، وابوه يقول من اوسخ بشر... هو يعرف تماما ان ميرا ليست وسخة وليست قبيحة، بل هي للحق أجمل مخلوق رأته عيناها، وهي لطيفة ونغشة وحركة وتحب الاكس ونط الحبل بعكسه هو... كما انه لا يحب الكلاب بعكسها هي... فلديها كلب إفرنجي لونه ابيض اسمه (بوبو) تلعب معه وتطعمه..." ص ٢٨. وكذلك: "... رأى وجهها عبر العدسة... النمش البني على الابيض وأنف صغير كالفستق وشفاة حمراء طبيعية مثل الشقيق، ما اجملهما! لكنها سرقت عنبر (القطة)... وسمعتها ترطن بالانجليزي مع أخرى (راشيل) شقراء أجنبية، الأجنبية مدت يدها... كانت شقراء بشعر قصير ناعم... نمشاء... قصيرة ونحيفة من القطع الصغير مثل ميرا..." ص ٢١١.

سعاد:- على لسان احمد:

..."زميلة مجيد في الفرقة (الموسيقية)، التي تقطن في نابلس... دعتهما إلى
فنجان قهوة وجولة سريعة في السوق العتيق... صعدت بهما إلى منزلها في البلدة
القديمة لتعرفهما بأماها حائكة الصوف... هبت نسيمات عاطرة لازهار الفل... هنا
بلاط منقوش بزخارف... جرداء... الاصوات من خلف الفل، الجيران وعزف
منفرد... من الراديو وبكاء طفل... ورغم الضجيج... الا انه احس بانسجام
عجيب مع الاصوات ووجوه البنات ورائحة الفل... ثم عيال... وارتفاعه...
مثيرا للرهبة والاعجاب... هنا مغر الثوار... وكذا تاريخ المدينة وابو سعاد...
في معتقل الرملة... هنا الناس بسطاء بلا تحذلق وبلا بطانات ولا اسرار...
رائحة الفل المختلطة برائحة الطيبخ... وصراخ الناس وباعة النعنع والفقوس
ورائحة الخبز وزامور (بكب) يفتحم السوق... والسائق يزعق (وسع وسع)"
ص ٥٨.

..."سعاد الجدية المجتهدة اوضحت هنا في العلية امام القطعة مثل الاطفال...
تدرس أحياء سعاد هذه، وبدأت الأحياء في عالمها شبكة علاقات منسجمة بين
النباتات والمخلوقات وقطط وكلاب وعصافير... لا يملكون (اهل سعاد) حنينة
ولا حديقة الا ان دارهم المعلقة فوق القباب والاقواس مليئة بأزهار بيتية ونعنع
وياسمينية تتعربش فوق المدخل وتجعل منه عريشة صغيرة، اصغر بكثير...
واجمل بكثير من الكازيبو (٢)..." ص ٦٠.

أمّ سعاد: على لسان احمد الروائية

... "التصق احمد بأم سعاد... كانت تعويضا عن أمه واجواء البيت... فهي صلبة، وكذلك حنونة وسخية كانت تحب ان تطعمه كلما جاء... سمبوسك... مناقيش واصابع زينب وعوامة... تحدث إلى ام سعاد وحكى لها قصة سجنه... سألت بفضول... وحق في وجهها كي يسأل لماذا تسأل... لكنه خجل وابتلع السؤال، فهذه المرأة تجعله يحس بأنها امه مع انها ليست امه، بل هي نقيض لأمه فهي قوية وصلبة وبحبوحة وذات لسان مثل المبرد، ولها ضحكة ذات أصداء تهز الحارة، امرأة قوية وسخية وتحب الضحك وصوتها عال مثل المدفع وتنادي... "ص ١٣٩ - ١٤٠.

... ففي المسؤولية عن فتح البيت... المشغل وأجور البنات، منذ فارقتها وقبع في السجن صارت امرأة قوية. في البداية ككل النسوان،... في البيت تطبخ وتتفخ وتحبل وتلد مثل القطط والأرانب، في كل سنة ولد في البطن وولد في الحوض وولد يلتصق بركبتها حتى طفحت اركان الدار... فجاء اليهود ورحموها، اخذوا المحروس ففاس البيض وتركوا الدجاجة والصيصان، صاحت ناحت وشدت الشعر ثم انتفضت وبدأت تعمل... كبر الاولاد، وذهب سعيد ليدرس في الشام، وعزيز إلى المغرب ومروان هاجر لاميركا، ومحمود استشهد... وجميل راح وعماد راح وما بقي منهم إلا سعاد، فكيف يقولون البنات لا نفع لهن! وكيف إذن لا تحب سعاد؟ وكيف لا ينادونها يا ام سعاد؟ سعاد انن هي ست الكل والنوارة،

وابو الاولاد لم يورثها الا القلق والهم والغم ومصروف الدار ومصاريفه... محامي... الزيارة... ومصروف لدخانه وأكله والشرب والمدارس...و...و... شيء مقرف! هذا وذاك من اجل من؟ وبفضل من؟ بفضل الزوج الذي لم يرحمها؟ حين كان هنا كان كالبغل، رأسه يابس. يصرخ الصوت فيهبز الدار، يقول لها: وله يا حرمة وله يا هبله، وله يا حمارة. وكانت تقول: طيب، طيب بس انت روق، طول بالك. وتركض هنا، ثم تركض هناك، تسمح لهذا، وترضع ذاك، وتعكز أمه للحمام، ثم سجن هو وماتت امه، وراح الاولاد وبقيت هي، ولو عاد اليوم وقال يا حمارة ستقيم الدنيا على رأسه. لكن للحق اصبح أحسن... في السجن احسن حالا، أهدأ بالاً، ألطف وأظرف ويحكي النكت ويغازلها، علموه في السجن، صار بني آدم... مذهل، بسبب اليهود صار بني آدم..." ص ١٤٢.

ثم انظر الحوار الذي دار بين النساء في بيت الوشمي ما قبله وما بعده ص ٩٥ - ١٢٩.

وكذلك الحوار الذاتي لسعاد، ومن ثم حوار بين سعاد وأمها. ص ١٧٢ - ١٨٢. وكذلك القطة. أصبحت القطة لها ذاتها داخل ذاته، صارت مرآة لأفكاره..." ص ٥٩ - ٦٤.

الشخصيات النسائية في الرواية:

جميعهن مررن بمواقف، أزمت، تجارب أو مراحل حياتية، أفضت إلى تحولات جوهرية في التركيبة النفسية - الاجتماعية - الانسانية لكل واحدة منهن، وكان منهن من ترافقت عندها هذه التحولات بالوعي ايضا، لم تنتج الفرصة للقارئ بالوقوف على هذه المرحلة الحرجة من حياتهن او مرافقتها، وفي هذا قول، او على الاقل ما يستدعي تساؤلا: هل في اهمال هذه المرحلة ما يشير إلى الغاء شرعية التعاطي معها، لأنها تخص النساء؟ ام انه لا مكان في زحمة الاحداث (احداث الربيع الحار) لنوليها الأهمية التي هي جديرة بها؟ أم أن الروائية لم تستطع أو لم ترد ان تفتح للقارئ نافذة يطل بها على ما يجيش في صدور هؤلاء النسوة، حيث ذلك بقيت تجربة المرأة كبقايا طلاس، تضامنت معها على المستوى العقلاني الانساني، وكانت عواطف ومشاغري مهمشة، المرأة في الربيع الحار لم تفتح لي قلبها ولم تعزف على أوتار قلبي، بل حاولت أن تستدر موقفي المتضامن معها، ولكنها لم تكن بحاجة إلى ذلك، فأنا آتية من هناك.

قرأت: في الرواية "تصوير" للواقع الذي تعيشه المرأة، تصوير خارجي اعتنى بالرتوش، وكأن العناصر النسائية المشاركة في الرواية "عارضات" او معروضات" في شباك او "صندوق العجب" كل على ما جاءت لتمثله من نموذج نسائي وقد استصعبت ملامسة همومهن.

رأيت: في النساء المعروضات في الرواية الوانا زاهية واحيانا براقعة من الخارج معبرة عن مكان وزمان، ثم أسدل الستار، لم استطع ان انفذ ببصري ولم تتح الروائية لبصيرتي ان تتخطى الظاهر وان تقف على أعماق الشخصيات النسائية الواردة في الرواية (باستثناء شخصية سعاد ولفترة وجيزة) وقد يكون هذا بالضبط ما ارادته الروائية، لم تخاطبني أي من النساء ولم املك إلى التواصل مع أي منهن سبيلا، في حوار حقيقي صادق المشاعر دون وجل او تردد، وكأن بيني وبينهن حاجز زجاجي غير منظور معني من ملامستهن.

سمعت: في الرواية الكثير من الحركة والضجيج والفرقعات وبطبيعة الحال ايقاع المعركة، ازيز الرصاص ودوي القصف والطائرات، وسمعت النساء، كل لها صوت وصورة وكلمة تقولها بما يناسب المكان والزمان والموقف (لورا وأمها والكازيبو ورام الله) او (سعاد وأمها ونابلس) (الجدة وام احمد والمخيم وعين المرجان)، الكثير الكثير من الحركة والضجيج، ولكن افقدت الابقاع الداخلي، فتشتت عن النبض الانساني النسائي، الشخصي الفردي النفسي الخاص والمستقل للمرأة، فلم اجده، المرأة تقوم بكل هذه الحركة، لا بل إنها المحرك، ولكنها تأتينا على "طبق جاهز"، على لسان غيرها، وعندما تقف في مواجهة القارىء (الحوار بين العناصر النسائية ص ٩٥- ١٢٩) يأتي الحوار فوقيا، لا بل فوق أكوام من الجليد، مسطحا لا مكان للصدق الداخلي وما يعتمل في الذات الانسانية لكل منهن، بقيت النساء "تتراشقن الكلام" تماما كما يحدث في الواقع والحقيقة، ولكن، في الواقع والحقيقة أيضا حين تتراشق النساء الكلام فإن لهذا التراشق ينابيع

داخلية دفاقة بعضها كصقيع الأرض وبعضها كدفع المواقف، لم استطع العثور على هذه الينابيع.

لاحقني اثناء قراءة الرواية، شعور بأنني ارى فيلما سينمائيا من الأفلام العربية المصنفة بين المتوسط والأدنى على خلفية مشاهد مأساوية من حياة الناس إبان الانتفاضة، تكثر فيه الشخصيات (النسائية وغيرها) وهذه الشخصيات لكثرتها لم تتضح معالمها، بقيت غامضة ومسطحة، نماذج تمثيلية، وكأنني أنظر في مرآة تعكس لي ما ظهر من الصورة، دون ان تسعفني بحل اللغز، لغز الصمود والبقاء، اللغز الذي حيرني، ماذا تحتوي هذه التركيبة النفسية الانسانية لتجعلها قادرة على الاستمرار جيلا وراء جيل؟ على الرغم من معاشتها في ذات النسيج الاجتماعي "لال الوشاشمة" كرموز ان كان سلفا او خلفا، وبقي السؤال يجول في خاطري من أين تحتطب هذه المرأة وقود الحياة؟

إذا ما أرادت الروائية أن أبقى مع تساؤلي هذا، فقد نجحت في ذلك.

وبعدها تحدث خليل سموم فقال:—

— كتاب قطعة جيد، وكذا ورقه وطباعته.

— الغلاف ذو لون هادئ، عنوانه واضح، وهو أكبر حجما من اسم الكاتبة، وهذا شيء جيد.

— صورة الغلاف ممتازة، ورغم أنها صغيرة، إلا أنها تلخص محتوى الرواية، صورة شاب فلسطيني يبدو مصاباً، يلطخ دمه جسمه، وما حوله، وتبدو يده جبارة، ووجهه فولاذياً، لكن التعب نال منه كثيراً، لأنه بذل مجهوداً جباراً، وهذا هو حال الشعب الفلسطيني.

— الرواية مشوقة جداً، فهي تشد القارئ لقراءتها من نهاية الصفحة الأولى وحتى نهاية الصفحة الأخيرة.

— المتحدث الكاتبة الأسلوب الملحمي في السرد، فهي تقص روايتها بضمير الغائب، وتجعل من نفسها راوية تسرد الأحداث، ولكن مع تدخل كبير من جانبها.

— تجري أحداث الرواية في زمن معين، وكذلك في مكان معين، وهو نابلس ورام الله، وبذلك استطاعت الكاتبة أن تحدد روايتها بأبعاد زمانية ومكانية واضحة.

— وما يلفت النظر في هذه الرواية هو ذلك الرسم الدقيق للشخصيات بحيث إن القارئ لا يجد صعوبة في الرحيل مع كل شخصية على انفراد حتى تصبح تلك الشخصية مألوفاً كأنها تعيش معه، جدير بالذكر أن شخصيات الرواية هي حياة متنامية حتى النهاية.

— تقول سلمى الخضراء الجيوسي في كتابها (الادب الفلسطيني المعاصر) عن سحر خليفة: (ورغم أن سحر خليفة تكتب بالعربية الفصيحة، فإن لها قدرة عجيبة

على استعارة العامية الفلسطينية وتعبيراتها الدارجة عندما يقتضي حال الحوار في الرواية).

ولكن سحر خليفة في روايتها هذه، لم تكف باستعمال العامية الفلسطينية وتعبيراتها الدارجة في الحوار، لكنها استعملتها ايضاً - وبشكل لافت للنظر - خلال السرد! فماذا كان قصد الكاتبة من ذلك؟!

كفلسطيني، فهمت الرواية كلها، ولكن كيف سيفهمها المصري والسوداني والعراقي والليبي؟! ونحن بأشد الحاجة لكي يقرأ لنا كل العرب.

— ولقد لفنت نظري في الرواية الفقرات التهمية الأربع التالية:—

1.صفحة ١٤٧: (هرب السكان إلى الداخل، وامتأ الحوش بالمنكوبين والمصابين وعويل الأطفال والصبايا، والتصق الجرحى بالجدران والزوايا لأن الجامع امتأ بمئات المصابين والمبتورين وجثث ممزقة محروقة، وروائح كريهة والغازات والحرائق، وبراز الاحشاء المفقورة، وتبول الناس على أنفسهم، فهذا يشخ على حاله، وطفل يتبرز وينقياً، وبقايا كلب متفحم، ومصاب يصرخ مشان الله، عشرات يصرخون مشان الله، لكن الله كان مع النصر في الدبابة ونسي الجامع!!!)

2.صفحة ١٤٨: (هؤلاء الناس مثل الايتام، بلا مأوى وبلا طعام وبلا رب يرعاهم. فماذا فعلوا حتى ينالوا كل هذا؟ وماذا فعلوا؟ سرقوا؟ نهبوا؟ قتلوا؟ حرقوا؟ لماذا يا رب كل هذا؟!)

3.صفحة ١٥٣: (صاح الجنود: "يا أهل نابلس يا شراميط، إحنا جايين نفعل فيكم"، كان ذلك من مكبرات الصوت المنتشرة فوق مآذن وضعت هناك خصيصا لنداء الرب، ولكن الرب كان بعيدا، وكانت نابلس تحترق ببطء).

4.صفحة ١٥٨: (عندما قتل القائد ابو رامي قال ام سعاد وهي تبكي: إرحمه يا رب، الرحمة تنزل على روحه، كان أحسن أب، وكان أحسن أخ، كان أحسن قائد في الدنيا، وبموته يا رب يتمتنا، لماذا يا رب ولكن عتبي عليك يا مولانا، يا سيدنا، يا مالك الملك، لماذا تأخذ الأحسن وتبقي الأنذال)؟!

— وأخيرا، فإن هدف الرواية كما قالت الكاتبة في الإهداء: (حفر التجربة في الذاكرة ووعي الأجيال)، وبعد أن قرأت الرواية وجدت أنها تستحق فعلا ان يقرأها كل انسان من جيلنا، وكل فرد من الأجيال القادمة، وذلك لأن مضمونها جزء مهم من تاريخ الشعب العربي الفلسطيني.